

قبل السماء الأخيرة

من الطبيعي أن يصير كلُّ حدثٍ ذكرى، إلا في فلسطين، التي تشهد سوء فهم مزمن مع الطبيعي منذ أكثر من مائة عام، فالأحداث تبدو محظوظة، إذ بإمكان أيٍّ منها أن يصير له ذكرى. ومن ذلك، مثلاً، إطلاق **الجنوب: المجلة الفلسطينية للدراسات التحررية** من القدس في صيف 2025—المجلة التي تُكمل الآن، السنة الأولى من عمرها، أو تكاد. وعلى الرغم من قتامة الأحوال في فلسطين المحتلة ولبنان الجريح، إلا أن أعداد **الجنوب**، حملت ثلاثة عناوين مضيئة، هي: "الحقيقة والأوجه الغائبة"، و"القوا الشباك ثانية"، و"قبل السماء الأخيرة"—خلاصة عمل جماعي تطوّعي مستقلٍ يحمل مسؤولية القول على زمن فلسطين وزمن الجنوب وزمن العالم: ماضي الأوجه الغائبة، وحاضر الحقيقة، ومستقبل الأمل الممكن قبل السماء الأخيرة، لا بعدها... الأمل الذي يبُدُّ تكرارَ محاولة اجتراحه، بوفرتة، يأسَ النُدرة. وقد زاملت هذه الأعداد، المفردة والمزدوجة، خمسة كتبٍ أطلقنا على كلِّ منها، تيمناً: **كتاب الجنوب**، ليكون لكلِّ جنوبٍ كتاب، يستعيد نهجاً توقّف في مدوّنة المجلّات العربية هدُفه إرباك النظام في الكتابة والتلقّي والسجال: ضدَّ التاريخ، ضدَّ الأرشيف، ضدَّ صهر الوعي، ضدَّ الاستعمار، ضدَّ عنف المعرفة... ومع استعادة الحربة سيرتها، والذاكرة أمكنتها، والتضامن أزمته، والمقاومة منطقتها، و"الوجود دورته الدائرة".

بعد صدور المجلة، وفي أوج إبادة غزة ومحو فلسطين ونهش لبنان واستهداف كلِّ جنوب... توالى أسئلة جيل النكبة عن الجديد في **الجنوب**. فكانت الإجابة أن جديد **الجنوب** هو القديم، والقديم هو: فلسطين القديمة، والفلسطينيون القدماء، والفلسطنة القديمة... هذا الثلاث الذي صار مقدّس الفلسطينيين الجمعي في العام 1968 حين عرّفت منظمة التحرير الفلسطينية القديمة فلسطين والفلسطينيين والفلسطنة وحددت موقف الكفاح ضدَّ الاستعمار الصهيوني، وموقف العداء ضدَّ حاضنته الإمبريالية، وموقف الرفض ضدَّ وصاية من سار في ركبهم من رسميّات عربية لا تزال تواصل العيش في الزمن المريض ذاته حتى اللحظة. حينها، كنّا واضحين، وكان العدو واضحاً: كانت الهوية واضحة، والقضية واضحة. أما اليوم، وقد ازداد العدو وضوحاً، وازددنا غموضاً، فكان لا بدّ من تذكير من كانوا ضحايا سياسات النسيان، هنا وفي الجوار العربي وفي بعيد العالم، بما لا يُنسى: وهو "واجب الذاكرة" الذي أُرشدنا إليه شاعر القلعة، أمل دنقل، دون أن يقول عنه كلاماً كبيراً.

صحيح أن حالتنا واضحة، والعدو واضح، والجدار واضح، والكتابة على الجدار واضحة كذلك، وإن صارت الكتابة على الجدار تهمة، ناهيك عن قراءة الكتابة التي على الجدار... لكن **الجنوب** ليست كتابةً على الجدار بقدر ما هي "مرآة حبر"، ربما لا تكون باعثة على التفاؤل كمرايا الحثّيين السائلة، ولا باعثة على التشاؤم كمرايا بورخيس التي تقرأ مقادير الكون والكائنات من الجنوب، وتقرأ مآلات الشرق والغرب والشمال. **الجنوب** "مرآة حبر" لا يطلق كتّابها النار على وجوه الساعات كما فعل المؤرّخ الشمالي، الذين أراد أن يخلّص العالم حين يكون مسيحَ زمانه وهازم

الدجال، فانتحروا! ولا يحطّمون المنظار لكي يغيّروا مسار التاريخ إذ لم تعجبهم صور النظام ونحو الكلام... ولكنهم، على الأقل، يلقبون المنظار، كما اقترح خبير قوميّات قديم، ليصغر العالم الكبير في عيونهم، ولتتّزن ذواتهم وقد "غرقت الفكرة عن الثبات". وحتى لا يتواصل غرق الفكرة، فقد انطلقت **الجنوب**، لا لتقترح جديداً بل لتذكّر بالقديم الذي تأخّر في الوصول، ولتستمرّ في الإعادة التي تبقى جذوة الأمل مشتعلة... بقدوم لحظة الاستعادة.

وحتى لا تقع **الجنوب** في غواية تهنئة الذات، ربما ينبغي ألا تُصرّ على كونها مرآة، سواء كانت "مرآة حبر" تتقمّص بومة فيلسوف لا تطير إلا بعد حلول الظلام، أو "مرآة صبر" تتقمّص حمامة نبي لا تبشّر إلا بالسلام وقد انحسر الطوفان. و**الجنوب** لن تكون مرآة إلا بقدر ما يمكنها أن تتجاوز مرحلة المرآة بسلام—أن تكون تمريناً مستمراً على النظر إلى الذات والآخرين، يحتفي بالخطى ولا يخجل من الخطأ. ولتكون كذلك، ربما يحسن التحقّق من سلامة النظارة، أولاً، قبل التحقّق من سلامة النظر.

في كتابه **بعد السماء الأخيرة** (1986)، الذي كان حافزاً الأساسي للتصدّي لمحاولة إيكام نظرة العالم إلى فلسطين، يبدع إدوارد سعيد في تأويل الفلسطيني، ناظراً ومنظوراً إليه، ابتداءً من أروقة الأمم المتحدة وانتهاءً بشاشات البثّ المتفرّقة. يستند سعيد إلى مجموعة صور جان مور التي التقطها للفلسطينيين على امتداد أكثر من ثلاثة عقود بعد النكبة داخل فلسطين وفي الشتات، ويقرّر أن يجعلها "طريقة أخرى في رواية" حالة وجودية نادرة لشعب "تضيق به الأرض" فيصرخ: "إلى أين نذهب بعد الحدود الأخيرة، أين تطير العصافير بعد السماء الأخيرة؟" على حافة ذلك الأفق الكارثي—الذي أحدثه احتلال الجنوب واجتياح بيروت وخروج الثورة الفلسطينية من لبنان، ونحن "لم نفهم لبنان أبداً، ولن نفهم لبنان"—حدّرتنا محمود درويش من مجيء برابرة آخرين: "هنالك ليل أشدّ سواداً، هنالك وردٌ أقلّ" (1986). وبراعة الفكرة ووضوح الصورة ونبوءة القصيدة روى سعيد، على امتداد الكتاب الرهيف-الكثيف، حكاية الفلسطينيين دون "إذن بالرواية" كما يفعل أبّ جالس بين جدّ وحفيد... يقلّب ألبوم عائلة ثاكلة.

ومن ضمن مائة وعشرين صورة في الكتاب، تهّمنا هنا صورة واحدة التقطها مور في العام 1984 في رام الله لرجل قروي مسنّ يرتدي الحطّة والعقال، ويضع نظارة عدستها اليمنى مكسورة، ويبتسم للكاميرا. في قراءة الصورة، تتكرّر متلازمة سعيد في مهارة الانتباه ودقّة التحليل وغرابة الاستنتاج، إذ في ظلّ مجهولية الاسم والحكاية، يقوم سعيد بملء الفراغ عبر فعل التنظير الذي ينوس بين التحليل والتأويل والتمثيل على الرغم من التحرّز الدائم بإبداء عدم الرضا التامّ عن فعل التنظير الذي قد يخفق في كتابة "المفهوم الكامن وراء الفكرة". يقرأ سعيد بهجة صورة الرجل، وابتسامته (على الرغم مما فيها من تواضع و"توق حزين")، وإقراره بالتقاطها... خارج إطار الشفقة ودائرة الضّحوية، لكنه ينتزع من الرجل حكايته وهو ينتزع نظارته ليضعها على عينيه هو. يقول سعيد، مُحققاً: "إن العيب في العدسة" اليمنى لا في الرجل الذي ما زال قادراً على التكيّف والرضا النسبي لرؤية كلّ ما يُرى بالعدسة اليسرى السليمة.

يغضّ سعيد النظر عن مدى وضوح رؤية الرجل، وكيفية رؤية الآخرين له، ليوكّد أن "ثمة دائماً بعض التداخل في الرؤية" ناهيك عن الإزعاج الذي تُسببه العدسة المكسورة للرجل، والانزعاج الذي تسببه العدسة المكسورة نفسها

لمن ينظرون إلى الرجل. ولكن سعيد يتخذ من الكسر مجازاً لاستدعاء عدد من الثنائيات المشوّشة التي تكتنف وحشية التاريخ الذي تتشكّل فيه هوية الفلسطينيين من زاوية نظرهم إلى العالم ومن زاوية نظر العالم إليهم: الاستعمار والنكبة، والنضال والإرهاب، والمنبوذية والتضامن، والمظلومية والاستحقاق، واللجوء والعودة... لكن اليقين الذي لا يتزعزع عنده هو أن الفلسطينيين ما زالوا عاجزين عن إنتاج خطاب متماسك يعبر عن ذلك كلّ. إن ذلك "الاختلال المتوازن"، وهو اختلال في الوعي من وجهة نظر سعيد، كان وظلّ وسيبقى حائلاً دون "الاعتماد على صورة مركزية واحدة" نحمل الآخرين على رؤيتها كما نراها نحن، أو يحملوننا على رؤية أنفسنا كما يروننا هم... وهذا تقريباً كل شيء يمكن أن تقوله الصورة عن قصتنا—نحن الفلسطينيين.

لقد سلك سعيد مسار تؤول شاقّة، ووصف عجزه عن ترتيب الأشياء بشكل متماسك ومتسلسل ومنطقي، لكنه اعترف، في نهاية المطاف، بالقول: "أكتب من بعيد. لم أجربّ الولايات. لو جرّبتها لربما لم تكن عندي مشكلة في العثور على سرد مباشر وبسيط لرواية قصة تاريخنا." وعلى الرغم من إدراكنا أننا—نحن الذين نكتب "من قريب"—ونحن نحاول نزع النظارة ذات العدسة المكسورة عن عيون سعيد وإعادتها إلى صاحبها، قد نكون نرتكب خطيئة تؤول التأويل، إلا أن الذهاب أبعد في التأويل ينبغي أن يكون على شكل أسئلة في ظل غياب الرجل (مجهول الهوية) الوحيد الذي في وسعه أن يقدمّ الإجابات عن سبب كسر العدسة أهو بندقية جندي، أم عصا مستوطن، أم سقوط على حديدة المحراث سببته زيتونة معاندة في الحقل الذي لم يُحرق بعد، ودرجة كفاءة كلّ من العينين، والإحجام عن تغيير العدسة، والإقدام على الاحتفاظ بها، وإن كان ذلك جرّاء فقر، أو لامبالاة، أو حفاظاً على شيء حميمي لا يريد تغييره، أو الإصرار على إبقائها كما هي حتى لا ينسى ليغفر ولا يغفر لينسى. ربما لا يفضي الإغراق في تأويل التأويل إلا إلى نتيجة واحدة، وهي أن إعادة الانسجام بين عدستَي النظارة، لا التصالح مع ما ألتنا إليه، لا ينبغي أن يقرّر بشأنه إلا صاحب النظارة الذي أفقدته إرادة التأويل ونزعة التمثيل حقّه في الكلام.

وبعيداً عن أسئلة الموقعية والتمثيل وسياسات الوجود والاعتراف، يبدو أن سعيد ظلّ مهجوساً بهذه الصورة حتى آخر حياته لا حتى آخر الكتاب وحسب، حيث يعلن أن "عدم اكتمالنا الوطني" وأن عدم كتابة "تاريخ كامل لنا كشعب"، وأن عيشنا حياةً قوامها "ليس بعد"، وأن تأخّر "سبت تاريخنا"، ينبغي أن يكون حافظاً لئلا نبقي "موضوع" النظر من قبل الآخرين و"فاعل" الانتظار من قبل أنفسنا، "وألّا نسمح بذلك بعد الآن." إن إنهاء سعيد الكتاب بهذه العبارة الحاسمة، قبل أربعة عقود، يبدو متوافقاً مع عنوان الكتاب الذي استعاره من درويش. فقصيدة "تضيّق بنا الأرض"، ككتاب سعيد، وإن كانت تطرح ضرورة التفكير في ما "بعد السماء الأخيرة" (وقوع الإبادة)، إلا أنها تجعل "الممرّ الأخير" فضاءً ممكناً ما "قبل السماء الأخيرة" (استمرار البقاء)، يمارس فيه الفلسطيني حقّه في الموت والزراعة، أو في الموت بوصفه زراعة: "هنا سنموت، هنا في الممرّ الأخير، هنا أو هنا، سوف يغرّس زيتونته دُمتنا."

بعد أربعين عاماً من أن "ألّا نسمح بذلك بعد الآن"، نستدي هذا التّساق بين سعيد ودرويش عن النظر والانتظار،

واحتمال وجودنا قبل السماء الأخيرة وبعدها، في لحظة تاريخية قائمة تبدو وكأنها شبح الزمن الذي يعبث بمصيرنا الفردي والجمعي. لا بدّ أن وعينا بالزمن يقابله وعي الزمن بنا، فكلانا موضوع للآخر، ولا بدّ أن لاوعي الزمن مخبوء تحت وعيه مثلنا، في علاقات التاريخ وتياراته اللامرئية ومناطق العمى بين "الأحداث الكبرى"—الأحداث المحظوظة، لكنه لا يظهر على شكل أحلام، بل في هيئة كوابيس حيّة تجعل لحظة تاريخية جهنمية سابقة (لبنان وفلسطين صيف 1982) تبدو نعمائية مقارنة بلحظة تاريخية لاحقة (فلسطين ولبنان صيف 2026). قد تخفّف فكرة فساد الأزمنة من ابتذال مقولة إعادة التاريخ نفسه مرّة على شكل مأساة ومرّة على شكل ملهاة، ولكن الإصرار على ممارسة فاعليّتنا الوجودية في الممرّ الأخير بين ما-قبل السماء الأخيرة وما-بعدها، هو الضمان الوحيد على عدم تحوّلنا إلى ضحايا أبديين لشبح الزمن، أو إلى ناجين محتملين لا يعرف ملاك التاريخ كيف يمنحهم بعض دفء جناحيه وقد أرجأ البتّ في مستقبلهم حتى إشعار آخر.

تشارك لبنان وفلسطين في حالة سوء الفهم المزمّن مع الطبيعي، ولا شكّ أن الكيان الصهيوني يسهم بالقدر الأكبر من حالة اللا-سواء هذه. وعلى الرغم من جرائم العدو التي لا نسيان لها ولا غفران، فإن وجوده للمفارقة يسهم في تصعيد التفكير في الواقع من حدّ المباشرة إلى حدّ التجريد الذي يسعى الفلسطينيون واللبنانيون من خلاله إلى اقتراح مقاربات تمكّن من البقاء في ظلّ اللاتطبيعي. فالحياة ليست حياة تماماً، والموت ليس موتاً تماماً، والنهائية ليست نهائيةً تماماً... هكذا يوسّع المغلوبون الذين فاتهم الانتصار فضاء الأمل بنقض علاقات حيّز اليأس، فيصير "الممرّ الأخير"، حقيقة لا مجازاً، هو المكان الوحيد الذي تتناوب فيه على الموت والزراعة كفعلين طبيعيين. ففي زمن الاحتلال (1985)، يرى إلياس خوري، مثلاً، أن "المخيم (في بيروت) ليس مقبرة"، لأننا نرى فلسطين تولد كلّ يوم في شاتيل. ولكنه لا يرى في زيارة المقبرة إلا أن "المخيم التقى بالمخيم"، مخيم الأحياء التقى بمخيم الأموات، و"في المخيم رأينا كيف تختلط فلسطين بالجنوب، وكيف تخرج الحياة من الموت." وإلى الجنوب قليلاً، يقرّر محمد علي شمس الدين في كتاب الطواف (1987) أن الجنوبي يرى بالقلب، ولا يحتاج إلى وصف طرق صعبة لكي يصل إلى جنوبه. وعلى الرغم من أن "الطريق طويل لا ينتهي" وأن "الطريق مسدود بطرق أخرى"، إلا أن "الطريق باب"، ووصف الطريق حجاب. وإلى الجنوب أكثر قليلاً، بين جنين والناصر، يقرّر صبحي الزبيدي في سينما تورا بورا (2008) أن تنقل الفلسطينيين بين معازلهم تتساوى جزّاءه احتمالات الوصول... إلى البيت، أو السجن، أو القبر. وعلى الرغم من وجودهم إلى حدّ بعيد في ما بعد السماء الأخيرة، إلا أنهم ما زالوا يتقنون فنون تهريب أجسادهم في حيّز مساريّ فريد في ما قبل السماء الأخيرة لا يخلو من مخاطر عدم القدرة على الوصول أو إيجاد طريق العودة. وإلى الجنوب أكثر وأكثر، لا يتردّد حسين البرغوثي في الضوء الأزرق (2003) في حثّ الفلسطينيين على الحفاظ على سوائهم الروحي والقلبي والذهني و"البقاء على الخطّ" حين يقطعون "خطّ التماس" الذي يفصل بين "شطري" القدس، أو جسر اللنبي الذي يفصل غرب النهر عن شرقه على تخوم سدوم القديمة... وذلك حتى لا تنفصم شخصياتهم بفعل النضال، كما انفصمت شخصية المكان بفعل الاحتلال.

قبل إبادة غزة، وضرب اليمن، وتهديد غرينلاندا، والإغارة على فنزويلا، والحرب على إيران، والوعيد بغزو كوبا... كانت إشارة إبهام إمبراطور روما القديمة إلى الأسفل لأحد المجالدين أن يقضي على خصمه في النزاع داخل ساحة لعبة الموت، تبدو خيالاً سينمائياً، فإذا بها تتحوّل اليوم إلى واقع عياني حين يهدّد إمبراطور روما الجديدة بمحو حضارة كاملة قبل حلول الصباح، أو قبل أن ينفذ إمبراطور إسبارطة الجديدة تهديده بإعادة غزة ولبنان إلى العصر الحجري قبل أن يذهب للمثول أمام محكمة الفساد، أو يُقتاد إلى المحكمة الجنائية الدولية. وقبل توثيق مشاهد غبطة الجنود الصهاينة ولهوهم في بيوت الفلسطينيين واللبنانيين من رفح إلى بنت جبيل قبل نهبها وتفجيرها في تجلّ واضح لـ"متعة الكراهية"، كانت قصائد درويش "عندما يبتعد" و"لصوص المدافن" و"تضييق بنا الأرض" و"في المساء الأخير على هذه الأرض"... تبدو وكأنها مبالغات جمالية، فإذا بها بالكاد تفضح الحد الأدنى من قرائن إرادة الشرّ المستحكمة في جيش الإبادة ودولة المستوطنين. وقبل أن تصير معاداة المقاومة في فلسطين حماية وطن، والاستعانة بالعدو القريب والعدو البعيد لضرب المقاومة في لبنان ممارسة للسيادة الوطنية، كان استدعاء مجاز فاوست لوصف جيش لبنان الجنوبي واستدعاء حقيقة سايغون لوصف روابط القرى، يُعتبر ضرباً من الإساءة في وصف حالتنا! هذه كلّها، دون شك، دلائل سافرة على فساد الأزمنة—الفساد الذي لا يجدي التحليل والتأويل في التصدي له وحسب، فتلك تمارين في النظر لها وجاقتها، لكنها ينبغي أن تتحوّل إلى دروس في الانخراط الفاعل لإحداث التغيير الجذري المحمول على الإحساس الفردي والجماعي بالمسؤولية عمّا حدث، ويحدث، وسيحدث... وما هذا العدد المزدوج من الجنوب إلا محاولة جماعية أخرى لنقل عدوى العمل بدل الاستسعاد بالكآبة الثورية التي تحيط بسؤال "ما العمل؟"

عبد الرحيم الشيخ